الفصل الثانى

شاعرية كامل الشناوى

داري غرامي - ما بدا لك - داري

أنا بالصبابة هاتك أستاري

هيهات... لا أقوى على كتمان

ما باحت به عيناك من أسرار

عيناك حدثتا بما سكرت به روحي

وعربد خمره بوقاري !

كامل الشناوى

obeikan.com

كان كامل الشناوى شاعراً رقيقاً، ذواقة، قرأ لفحول الشعراء العرب القدامى والمحدثين، خاصة شعر المتنبى وأبو نواس والمعرى، وكان أول ما يفتنه فى الشعر إشراقة الديباجة والعذوبة والجرس الموسيقى بجانب صدق الشعر وحرارته وبعده عن التكلف والافتعال وإلا أصبح نظماً، ولذلك هز شعر كامل الشناوى مشاعرنا لصدقه وعفويته وحرارة انفعالاته، يقول كامل:

«الشعر إذا لم يهز قلبك، وذهنك... فهو ليس شعراً. ولا يكفى أن ينبض فيك الشعر الذى تقوله، بل يجب أن ينتقل نبضه إلى قلوب الآخرين».

"والشعر رقصة عاطفية وعقلية، ولابد للرقصة من موسيقى تصاحبها، وتقودها، وإلا صارت خطوات ملتوية".

"وقد حاولت فى شعرى أن أغنى، وأبكى، وأرقص بصدق وموسيقى... ولا أعرف هل نجحت محاولتى أو فشلت؟"

"كل ما أعرفه أنى كنت صادقا فى غنائى، وبكائى، ورقصى".

* * *

وكامل الشناوى لم يتأثر فى شعره بمدرسة فنية بذاتها: كالواقعية، والرومانسية، والطبيعية، فهو متأثر بهذه المذاهب جميعاً، ولكنه لا يتقيد بمذهب واحد منها.... إن فيه واقعية تعبر عن تجربة ما، وفيه رومانسية تحلق فى الخيال، وفيه طبيعية حرة لا تقف عند ما هو كائن، ولكن تتحرق شوقاً إلى معرفة ما وراء الطبيعة!

لكن إذا صنفت كامل الشناوى وشعره وجدته فى النهاية شاعراً رومانسياً محلقاً، عاش بعواطفه ومشاعره المشتعلة حبا وعشقاً للجمال والمرأة ومصر ووطنه العربى، وظل يغرد على أغصان الجمال، حتى انقطع الوتر، وتحطم القيثار!

* * *

وعن الشعراء الذين صنعوا شاعرية كامل الشناوى يروى لنا صديقه الشاعر الكبير صالح جودت[1]:

"كان كامل الشناوى بسمة على ثغر الحياة.... لا تكاد تذكر يوماً من أيامه، أوليلة من لياليه، إلا قفزت على شفتيك ابتسامة لنكتة قالها، أو بيت طريف رواه، أو "مقلباً" هيأه لبعض أحبابه وأصحابه....."

"وكأن الله حينما خلق الهموم على الأرض، شاء - من لطفه بعباده - أن يخلق قوماً موكلين بإزالتها. ومن طلائعهم كامل الشناوى".

"فى مأتمه. كنت أسير مع رامى وظل رامى يهمس لى: فاكر....؟ وفاكر....؟ وفاكر....؟"

كان يذكرنى بروح كامل المرحة، لعله يسرى الهم عن نفسه وعنى، من ذلك، أن رامى عاش ما عاش، وهو يأبى أن يدخل التليفون إلى بيته، وكنت أسأله فى ذلك فيقول:

- أصلى خايف حد يضرب التليفون لمراتى ويقول لها أن جوزك بيحب أم كلثوم، وكان كامل الشناوى يعقب على هذه الخصومة بين رامى والتليفون بقوله أن شاعرين اثنين فى الدنيا لم يدخل التليفون فى بيتهما، هما أحمد رامى، وامرؤ القيس.

وفى مطلع عام ١٩٦٥ فقط، اقتنع رامى بضرورة التليفون، فأدخله فى بيته وسمع بذلك كامل، فاتصل برامى، وقال له:

- مبروك يا رامى... لكن كيف عرفت تدخل تليفون؟

فأجاب رامى... ببراءة:

(١) الهلال/ ١٩٦٦.

- والله يا كامل دانا غلبت على ما عرفت آخذ خط.

فقال كامل... جاداً:

ـ طيب يا أخى مادام لك نفوذ بالشكل ده، ما تتوسط لأمرئ القيس

* * *

وله فى التفكه وقائع طويلة مع شاعر البؤس عبد الحميد الديب، رحمة الله عليه، عاش الديب أكثر حياته جائعاً، بلا مأوى، ولا دخل.

وكان كامل الشناوى فى مطلع حياته الأدبية، سنة ١٩٣٢ يقيم فى بيت ذويه بأحد منعطفات شارع السد البرانى، بالسيدة زينب، وهو بيت قديم مؤلف من ثلاثة طوابق، كان كامل وحده يحتل الدور الأول منه، وكان - على رقة حاله فى ذلك العهد- كريماً مضيافاً. فكان يؤوى الديب عنده أياماً طويلة، ويقتسم معه طعامه.

ولكنه كان لا يفتأ يتندر على الديب ويتفكه به طوال مقامه عنده، وكان الديب - على سعة صدره وشدة حاجته وخفة ظله هو الآخر - يضيق أحياناً بفكاهات كامل، فيثور، ويترك البيت، ويحتمل حياة الجوع والعراء أياماً، إلى أن يصالحه كامل، فيعود.

من تندره عليه، أنه كان يخرج من جيبه عشرة قروش، ويقربها من الديب، ويقول للديب مشيراً إلى العملة:

- حضرتها... عشرة صاغ

ثم يلتفت للورقة، مشيراً إلى الديب، ويقول لها:

- وحضرته... الشاعر الكبير عبد الحميد الديب.

أى أن أحداً منهما لم ير الآخر أبداً.....

ثم يفعل مثل ذلك بقطعة من الصابون، أى أن الديب لم ير الصابون ولم يستحم فى حياته.

* * *

وكان بارعاً فى تقليد الأصوات إلى أبعد حد وقد استغل هذه البراعة فى كثير من "مقالبه".

ومنها أن الأستاذين عباس العقاد - رحمه الله - وتوفيق دياب، كانا صديقين.

وذات يوم، كتب توفيق دياب مقالاً سياسياً فى جريدته "الجهاد" واتصل كامل الشناوى بتوفيق دياب تليفونياً، وزعم له أنه العقاد، وقلد صوته وأسلوبه فى الحديث بطريقة لم تدع عند توفيق دياب مجالاً للشك فى أن محدثه هو العقاد.. الذى راح يفند المقال، ويهاجم توفيق دياب، ويتوعده بمعركة قلمية هادرة.

وثار توفيق دياب، وكتب مقالاً ينتقد فيه أدب العقاد بقسوة. وبدأت المعركة الهادرة بين الكاتبين الكبيرين.

* * *

فى ذلك البيت الذى حدثتك عنه، بمنعطف من شارع السد البرانى عرفنا الندوة الأدبية فى أول عهدنا بالشعر، وكان كامل الشناوى عهدئذ قد تمرد على الأزهر - الذى ألحقه به أبوه على غير رغبة منه - وهجر الدراسة، وتفرغ للثقافة العصامية يطلبها فى دار الكتب، وكنا نجتمع فى "مندرة" البيت كل ليلة لنسمع من كامل ما أعجبه من محصول يومه فى دار الكتب.

وفى الحق أنه كان ذواقة نادراً، وكان من خير الرواة ومن أحلى الأصوات العذبة فى تلاوة الشعر، إلى حد أن أم كلثوم وعبد الوهاب كانا يطربان لإلقائه من أمثلة ما سمعنا منه فى تلك الأيام، هذان البيتان

للشاعر العباسى، العباس بن الأحنف، يقول لحبيبته:

أستغفر الله، إلا من محبتكم
فإنها حسناتى يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية
فالحب أجمل ما يعصى به الله

وهذه الأبيات لملك أذله الحب، هو الخليفة سليمان المستعين، من خلفاء بنى أمية:

عجبا، يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجفان
حاكمت فيهن السلو إلى الصبا
فقضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبى الحمى وتركننى
فى عز ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكا تذلل فى الهوى
ذل الهوى عز وملك ثان

وهذه الأبيات لأعرابى مجهول:

شكوت، فقالت: كل هذا تبرما
بحبى؟ أراح الله قلبك من حبى
فلما كتمت الحب، قالت: لشد ما
صبرت وما هذا بفعل شجى القلب

وأدنو فتقصينى، فأبعد طالبا

رضاها، فتعتد التباعد من ذنبى

فشكواى تؤذيها، وصبرى يسوءها

وتجزع من بعدى، وتنفر من قربى

وكان كامل لا يفتأ يردد حكاية الشاعر الأعرابى الذى ارتكب فى حياته كل معصيات الدنيا، فلما تقدمت به السن وشارف الموت قال:

هل الله عاف عن ذنوب تسلفت؟

أم الله، إن لم يعف عنها، يعيدها؟

* * *

من هذه الأمثلة، تتبين لك اتجاهات كامل، كذواقة تأخذه من الشعر موسيقاه ورقته، ينقب فى بطون الأدب العربى يستخرج منها روائع لم تشتهر من قبل، لأن اكثر رواة المختارات التى طبعت فى الكتب، وفرضت على تلاميذ المدارس وطلاب الأدب، كان ينقصهم ذوق ذواقه ككامل الشناوى.

وفى تلك "المندرة" علم كامل إخوته الشعر، فشبوا جميعاً وما منهم إلا شاعر أو راوية.

نظم أخوه "أبو الفضل" شعراً لطيفاً وهو فى نحو العاشرة، وإن كان قد انصرف عنه بعد ذلك.

وبدأ أخوه "مأمون" بنظم الشعر منذ مطالع صباه. وكان ينظم بالفصحى، وينشر ما ينظم فى مجله "أبو للو" قبل أن ينصرف عن الفصحى إلى العامية، ويتفرغ لنظم الأغانى الدارجة، ويشتهر بها، وآخرها "بعيد عنك حياتى عذاب" لأم كلثوم.

* * *

وقد لا يعرف الكثيرون من أصدقاء كامل وقرائه أنه بدأ حياته الأدبية فى مجلة أسبوعية صغيرة، كان يصدرها المرحوم الشيخ عبد الحميد النحاس، بمرتب لا يزيد على جنيهين فى الشهر.

وكان نتاجه فى هذه المجلة مقصوراً على أدب الفكاهة، من شعر ونثر ومقامة. وكان هذا المناخ فى مجموعه، يمثل طرفاً من حركة أدبية كانت قائمة فى ذلك العهد بين جماعة "أبوللو" برئاسة شوقى وتوجيه أبى شادى، وبين العقاد ومريديه.

وقد أخذت المجلة التى يعمل بها كامل جانب العقاد، فضلع كامل فى المعركة رغم حبه لشوقى وإيمانه بمدرسته - بينما استعانت أبو للو على حملتها، التى شملت يومئذ طه حسين، وإبراهيم المازنى مع العقاد، ببيرم التونسى - رحمه الله - وكان بيرم يومئذ فى منفاه فى باريس، وكان يحرر عن طريق المراسلة جميع صفحات مجلة الإمام التى أصدرتها جماعة "أبوللو" يومئذ من الغلاف إلى الغلاف.

"وهكذا شهدت دنيا الأدب فى ذلك العهد معركة ضارية، لا أنكر أنها أسفت فى بعض الأحيان، ولم تسلم من التجنى - من الجانبين - ولكنها رغم ذلك كله أسفرت عن تصفيات كبيرة لعناصر الضعف. وأبرزت خطوطاً واضحة فى مدارس الأدب المعاصرة، وأخرجت إلى النور مواهب كثيرة شقت طريقها إلى الذروة. ومنها كامل الشناوى الذى اتجه بعد هذه المعركة إلى الصحافة اليومية، فبدأ من السفح إلى أن بلغ القمة، بدأ كامل مصححا فى جريدة "كوكب الشرق" إلى أن وصل إلى رئيس تحرير الأخبار".

وفى غضون ذلك. عمل بالجهاد والأهرام وروز اليوسف اليومية ودار الهلال والجمهورية.

ثم يقول صالح جودت:

«وقد أتيح لى خلال هذه المدة أن أعرف من كامل الشناوى أكثر مما عرفت منه فى أول شبابه».

كنت وأنا طالب بالجامعة، أناديه كما يناديه أخوته، بقولنا: ياسى كامل وحينما نال رتبة البكوية فى العهد الملكى، قلت له مرة واحدة: "يا كامل بك"... فغضب منى... وقال لى: "قل لى يا كامل فقط".

ومن يومها استجبت له، وجعلت أناديه باسمه المجرد.

وقد عملنا فى "الأهرام"، ثم فى "الأخبار" فى أول نشأتها، وذهبنا معا إلى أسوان عند إرساء حجر الأساس للسد العالى فعشنا أياماً فى غرفة واحدة، ثم سافرنا معا إلى مؤتمر الأدباء بالكويت، فلم نفترق ليل نهار طوال أيام المؤتمر.

وكانت هذه أول مرة - وآخر مرة - يسافر فيها كامل الشناوى إلى الخارج، كما كانت أول مرة - وآخر مرة - يركب فيها الطائرة .

"وكنت أعرف أنه - على ضخامه جسده - ضعيف الأعصاب، يفرق من كل شئ، ومن أقل شئ، وكان من المأثور عنه، إذ نحن نعمل معا بجريدة "الأهرام" أثناء الحرب، هو فى السياسة الداخلية وأنا فى السياسة الخارجية، أنه كان لا يكاد يسمع صفارة الإنذار، حتى يلوذ بدورة المياه، فيلبث بها إلى أن تتجلى الغارة، فيخرج منها شاحب الوجه مهلهل الجسد.

فلما ركبنا الطائرة إلى الكويت لحضور المؤتمر، رأيت الإشفاق من الموت فى عينيه ويضحك فى محاولة للتجلد، وهو يردد بيت أمير الشعراء، الذى كان يفرق من ركوب الطائرة هو الآخر، ولهذا لم يركبها فى حياته:

أركب الليث ولا أركبها

وأرى ليث الشرى أوفى ذماما

"أقول رأيت هذا الإشفاق من الموت فى عينيه، فأغريته بمضيفة الطائرة، وسألتها - بينى وبينها - أن تتلطف معه حتى تزول غشيته، وكانت شابة لبنانية مرحة، تحب الشعر، فما زالت به تداعبه وتشاغبه حتى نسى أنه فى طائرة، واستخفه الحسن، فهانت عليه الرحلة حتى نهايتها.

* * *

كان يستخفه الحسن كما قلت، فعاش عاشقاً، لا ينجو من حب إلا ليقع فى حب جديد.

وكانت أحب النساء إليه، ذوات الجسد الضئيل والصوت العذب.

ويضيف صالح جودت:

ولهذا، فإنه كان يحفظ عن ظهر قلب قصيدة لى، يلحنها عبد الوهاب، لتغنيها نجاة الصغيرة، عنوانها "مينيون" وهى كلمة فرنسية لا مرادف لها بالعربية، ترسم فى الذهن صورة للمرأه الحلوة الرقيقة ضئيلة الجسد كاللعبة. ومطلع القصيدة يقول على لسان هذه "المينيون" لرجلها فارع القامة:

أحبه، أحبه... ويزدهينى حبه
وفرته تعجبنى... وقلتى تعجبه
كأننى فى أصبعيه حينما أقربه
سيجار تؤنسه. تدفئه. تلهبه
كأننى لعبته.. وأضلعى ملعبه
كأننى عصفورة. زقزقتى تطربه
يضمنى فى يده. ويحتوينى جيبه
أكاد من تيهى به. آكله. أشربه

ولكنه كان فى كل حب له، يؤمن بالروحية دون الحسية، على حد قول الشاعر القديم:

وكم ظفرت بمن أهوى، فيمنعنى
منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم ظفرت بمن أهوى، فيمنعنى
منه الفكاهة والإيناس والنظر
أهوى الملاح، وأهوى أن أجالسهم
وليس لى فى حرام منهم وطر
كذلك الحب، لا إتيان معصية
لا خير فى لذة من بعدها سقر

ومع تواضع مطالبه للمرأة، لم يلق منها فى كل مرة إلا الغبن، فعاش عاشقاً نقياً شجياً، وهذا هو سر الحرقة فى شعره.

وأذكر أننى - عندما صدر ديوانه "لا تكذبى" وهو ديوانه الأول والأخير - كتبت عنه مقالاً فى هلال يناير. مقالاً عنوانه "شاعر يحب الخائنات" أحصيت عليه فيه - من واقع قصائد الديوان - عدد ما أحب ممن لم يبادلنه الوفاء بالوفاء.

عنوان الديوان نفسه " لا تكذبى".. كان صرخة ضد خيانة المرأة.

وأول بيتين فيه. كانا حكاية أكبر حب فى حياته... وأكبر غدر وقع فيه قلبه:

لا تكذبى.. إنى رأيتكما معا
ودعى البكاء فقد كرهت الأدمعا

مـا أهون الدمع الجـسـور إذا جـرى

من عـيـن كـاذبة فـأنكر وادعى

ثم يفصل صالح جودت الشعراء الخمسة الذين أثروا فى كيان كامل الشناوى وشعره، فيقول[1]:

"خمسة شعراء، لعبوا دورهم فى حياة كامل الشناوى، فأثروا فى كيانه، أو فى شعره، هم: الشريف الرضى، أبو العلاء المعرى، وأبو نواس، وإيليا أبو ماضى، وأمير الشعراء أحمد شوقى."

١- الشريف بكبريائه...

كان الشريف لا يخشى أن يشمخ أمام الخليفة، ويقول له:

عـفـوا أمـيـر المؤمنين، فـإننا

فى دوحـة العليـاء لا نتـفـرق

مـا بيننا يوم الفـخـار تفـاوت

أبداً، كـلانا فى المفـاخـر مـعـرق

إلا الخـلافـة مـيـزتك، فـإننى

أنا عـاطل منـهـا. وأنت مطوق

وأحب كامل فى الشريف هذه الكبرياء، وأحب الكبرياء.

مرة.. روى لى أنه مفتون بمضيفة فى فندق هيلتون، هى التى نظم فيها قصيدته التى عنوانها "فى الكافتيريا"... يقول فيها:

مـرت بنا كـالطيف تسـألنا

مـاذا تريد؟ فلذت بالصـمت

(١) المرجع السابق.

ودنت لتسألنى على حدة

عما أريد، فقلتها: أنت!

غضبت وألقت نظرة نزعت

قلبى وشدته إلى فمها

ياليته يقوى يقبلها

ياليته ينساب فى دمها

* * *

وأردت أرضيها، فقلت لها:

هل تعرفين. ومن أكون أنا

أنا يا صبية شاعر هرم

قد جاء يستوحى الشباب هنا

* * *

أريد إلهامة جديدة

بقدر ما أنظم القصيدة

فافتر ناظرها ومبسمها

وقصيدتى، مازلت أنظمها

وأظل طول العمر أنظمها

وذهبت معه إلى الكافتيريا لأرى فاتنته وملهمته.

كانت شابة لطيفة خضراء العينين، وليس فيها، بعد هاتين العينين الخضراوين. ما يستهوى شاعراً، اللهم إلا شئ من الاعتداد بالنفس.

ومكثنا نحو ساعة، ثم قمنا، وأصررت أنا على أداء الحساب - وهو ضئيل - فتركنى كامل أؤديه على غير عادته فى أكثر الأحيان، هامساً لى:

سترى، وأديت الحساب، وتركت للشابة فى الصحن الإكرامية الواجبة لمثلها، والتى أتركها عادة لكل زميلاتها، فإذا بوجهها يحمر خجلاً، وإذا بها تدفع بالطبق نحوى قائلة فى أدب: متأسفة... وتولى مدبرة وقال لى كامل:

- أرأيت؟... إنها الوحيدة هنا، التى ترفض البقشيش... كبرياء! وأجمل ما يفتننى فيها هذه الكبرياء.

- ولحبه للكبرياء... يقول فى قصيدة عنوانها "لست عبداً":

عـــــــلام يـا قـلـب تـشـكـو
نقض الحـــبـــيب عـــهـــوده
دع الـهـــــــــوان وحـطـم
أغـــــلاله وقـــــيـــــوده
يافـــتـنتى، لـست عـــبـــداً !
ولا أطـيـق الـعـــــبـــــوده
كـــونى الجـحـيم سـعـيـرا
فـلـن أكـــــــون وقـــــوده

ويقول فى قصيدة اخرى:

لـــست أشـــكـــو مـــنـــك...
فـــالشكوى عـــذاب الأبرياء
وهى قـــيـــد ترسف العـــزة

.... فـــــــــيـــــــــه والإبـاء

أنـــــــا لا أشـــــــكـــــــو

فـــــــفى الـشـكـوى انـحـنـاء

وأنا نبـض عـــــروقى كـــــبـــــرياء

٢- وأبو العلاء بحيرته وتشاؤمه... وبكل فلسفته

فقد عانى كامل شظفا فى طفولته، ثم لانت له الحياة، ولكنها لم تلن لبعض إخوته، بل لعلها قست على اليتامى من أبناء بعض إخوته، فأسى كامل لهم، وأعالهم، وبرهم كل البر، وأحس مأساتهم فلم يتزوج خشية أن يكرر المأساة، آخذا بقول أبى العلاء:

هـذا جـنـاه أبـى عـلـىّ ومـا جنيتُ على أحـد

أما حيرة أبى العلاء المأثورة، فمنها حيرة كامل فى مثل قوله:

زعـــمـــوا حـــبى يا قلب خطايا

لـم يـطـهـــــرها من الإثـم بـكـايا

والخطايا مـــالـهـــا من غـــافـــر

فـــتـــرفق.... وتمهل فى الخطايا

وفى مثل قوله للدهر:

هات مـــا قـــدر القـــضـــاء علينا

ولتـفـض كـأس عـيـشنا بالشـقـاء

لست أخشى القضاء إن قصد العدل

... ولكن أخـــاف ظلم القـــضـــاء

وفى مثل قوله:

قـــــد تخلت عناية الله عنى

وتخلت عناية الشـــــيطان

ضاق بى معبدى وضاقت حانى

لا صـــلاتى تجـــدى، ولا ألحـــانى

كما تأثر بأبى العلاء فى تشاؤمه، وإن كان كامل يدفع عن نفسه تهمة التشاؤم فى مقدمة ديوانه، ويقول "إن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة"وما أعرف أحداً ضحك للحياة فى حياته قدر ما ضحك كامل وأضحك من حوله، ولكنه كان أشد الناس حزناً إذا خلا إلى نفسه ليكتب شعراً أو نثراً.

من تشاؤمه قوله يصف نفسه:

كـــــهـــــارب ليس يدرى

مـــن أيـــن، أو أيـــن يمـــضـــى

شك! ضـــبـــاب! حطام!

بعـــــضى يمزق بعـــــضى

وقوله

دمـــعـــتى ذاب جـــفنهـــا

بسـمـــتى مـــالهـــا شـــفـــاه

صـــحـــوة الموت مـــا أرى

أم أرى غـــفـــوة الحـــيـــاة؟

وقصيدته فى يوم مولده، هى ذروة التشاؤم فى حياته.

٣- وأبو نواس.... فى حياته

بعيداً عن الشعر.فقد عاش كامل نواسيا يحب الليل وكل ما يحتضن الليل.

كل ما بين الرجلين من خلاف، إن النواسى كان مغرقا فى الحسية، أما كامل، فقد غلبت روحانيته على حسيته إلى حد كبير، وكان كامل يعترف بأنه صديق لأبى النواس، وقد حفظ شعره ودرس حياته دراسه نفسية مفصلة، وأزمع أن يكتب له سيرة بأسلوب جديد فى رواية السيرة، ونشر بعض فصول هذا الكتاب فى "الجمهورية" ثم انقطع. ومن أجمل التحايا لهذه الفصول، ما قاله المغفور له الأمير عبد الله السالم الصباح - أمير الكويت الراحل - حين دعانا - كامل وأنا - إذ نحن هناك فى مؤتمر الأدباء منذ سنوات.

قال الأمير لكامل يومئذ:

- إن من يقرأ فصولك عن أبى نواس، لا يشك قيد شعرة فى أنك كنت معاصرا له يا كامل.

٤- إيليا أبو ماضى

وإيليا أبو ماضى... داعية مذهب "اللاأدرية".... وصاحب قصيدة "لست أدرى" التى غنى بعضها عبد الوهاب، أثرت "لا أدريته"أيما تأثير فى تفكير كامل الشعرى، فهو يقول فى إحدى قصائده:

أنا فى الظل اصطلى

لفحة النار والهجير

وضميرى يشدنى

لهـــوى مـــاله مـــصـــيـــر

وإلـــى أيـــن؟ لا تـــســـل

فـــأنا أجـــهل المصـــيـــر

ويقول فى قصيدة أخرى، متسائلاً عما بعد الموت:

إلى أين نمضى أيهـــا الدهر، بعـــد مـــا

نصـــيـــر هبـــاء، لا ضـــجـــيج ولا صـــمت؟

وينسل منا الحب والخـــيـــر والهـــدى؟

وينسل منا الشـــــر والغى والمقت؟

إلى أين يمضى شـــيـــبنا وشـــبـــابنا

إلى أين يمضى الومض والنبض والصـــوت؟

وفى أى قـــبـــو منك خـــبـــأت من مـــضـــوا

وأبعـــدت مـــثـــواهم فـــراحـــوا ولم يأتوا؟

وفى أى يوم نـلتـــقى بهـــمـــو؟ أجب

فـــقـــد هدنا شـــوق، وعـــذبنا كـــبت

خمسة أسئلة... يتساءلها الناس منذ آدم حتى الإنسان الخير... ولا جواب عنها إلا: لست أدرى.

ويوغل كامل فى السؤال عن هذه الغيبيات، فيقول فى قصيدة يتساءل فيها من يكون "أنا":

يارب فـــيـم خلقـــتنا نهب الضـــبـــاب

... فـــــــــــــلا ظـلام ولا ســنـا؟

ونـدب فـــــــوق الأرض لا نـدرى بـهـــــا

ونـدب فـــــــــوق الأرض لا تـدرى بـنـا

أنـا مـن أنـا ؟ أنـا مـن أكـــــــــــون؟

وســــــــيـلـة؟ أم غـــــــــايـة؟

أنـا لـســت أعـــــــــرف مـن أنـا...

٥- وأخيراً... أمير الشعراء شوقى

وكان كامل الشناوى يقول، كما نقول نحن، أنه أستاذنا الأول والأخير، وأنه سيد الأولين والآخرين، بموسيقاه السحرية، ببيانه المشرق، بخياله الخصب... بتناجه الضخم... بمسرحياته الخالدة... بجده وعبثه... بإسلامياته وغرامياته... بمصريته وعروبته وإنسانيته بمحافظته وتجديده.

مرة.. هاجم أحد النقاد المحدثين ذكرى شوقى، وقال أنه لو عاش فى زماننا هذا لما كان له شأن!

وبكيت يوم قرأت هذه الكلمة الخسيسة بعد أن رأيت أقدار الرجال تهون وقال لى كامل الشناوى كلمة كفكفت دمعى... قال:

"لا عليك إذا رأيت الموتى ينتقدون الأحياء".

ملامح شاعريته فى ديوانه

ويتناول الشاعر الناقد د. كمال نشأت ديوان كامل الشناوى الأول والأخير لا تكذبى عند صدوره فى مطلع عام ١٩٦٥ بالنقد والتحليل، فيرى أنه ليس ديوانا بالمعنى المفهوم من كلمة ديوان، بل يعتبره حصاداً لرحلة كامل الشناوى على مدى عدة عقود منذ بدأ يكتب فى مطلع الثلاثينيات من

القرن العشرين فى مجلة "أبو للو" وغيرها حتى مطلع الستينيات من القرن العشرين أى عند صدور الديوان.

"لا تعتبر مجموعة (لا تكذبى) الشعرية ديوانا بالمعنى المفهوم من كلمة ديوان، ذلك أن الشاعر يجمع حصاده الشعرى بعد سنوات فى كتاب تنتظم فيه تجارب شعورية مختلفة، ومواقف متباينة، فيكون (الديوان) فى هذا الحال ترجمة وجدانية لحياة إنسان فنان."

(لا تكذبى) لا يحقق هذا المفهوم، لأن أغلب قصائده أغنيات غناها كبار المطربين، وكلها تدور حول موضوع واحد لم يستطع الشناوى أن يخرج عنه، فلا ترى فيه إلا غناء بعواطف تثيرها المرأة، كأنما الحياة قد تجمدت على هذه العلاقة بين الرجل والمرأة ولم تعد نفس الشاعر تهتز لما يموج به هذا الكون من موحيات تحرك نوازع النفوس وخطرات العقول، بل بما نحسه من تعاطف مع الطبيعة ومشاهدها وما نجده فى الحياة اليومية مما يثير النفس الشاعرة المنفعلة بهذه الحياة الدوارة الغنية الجديدة فى نظر الشاعر أبداً.

ولسنا بهذا الكلام نفرض على الشاعر - أى شاعر - نمطا من التجارب أو نحدد له درباً معينا يسير فيه، فإن النفوس الشاعرة تتباين فى معادنها، وتختلف فى زوايا التقاطها، وفى نوعية التجارب التى تجذب انتباهها، ولكننا نحب أن نحدد اتجاه هذه المجموعة الشعرية، مشيرين إلى أن لفظة (الديوان) حينما تطلق على مجموعة شعرية لأحد الشعراء تعنى ترجمة نفسية له، وانعكاسا لما أثارته الحياة على صفحة وجدانه، بكل ما تحويه كلمة (حياة) من معنى، أو بعبارة أخرى إن لفظة (الديوان) معناها ترجمة وجدانية لتجارب شخصية تتفاوت معدنا وطعما تفاوت الحياة نفسها، والمعروف أنه على قدر تنوع تجارب الشاعر وكثرتها يكون قربه من

النجاح فى التعبير عن نفسه وبيئته وزمنه، فإذا نظرنا إلى هذا المجال الضيق الذى حصر الشناوى نفسه فيه، وجدناه شاعراً غنائياً موهوباً، أميز خصائصه الصدق الشعورى، ذلك أنه ليس شاعراً منقطعا إلى الشعر - ومن هنا قلة شعره - وإنما هو رجل يكتب المقطوعة أو القصيدة إذا حركت ربات الشعر أوتاره الحساسة حينما يخلص من شواغل عمله الصحفى.

وليس أحلى ولا آنق من قوله فى بساطة آسرة وعفوية ملهمة وإحساس لاهب:

كنت فى صمتك مرغم ... كنت فى حبك مكره
فتكلم.... وتألم ... وتعلم كيف تكره
عرضك الغالى على الظالم هان ... ومشى العار إليه وإليك
أرضك الحرة غطاها الهوان ... وطغى الظلم عليها وعليك
قدم الآجال قربانا لعرضك ... اجعل العمر سياجا حول أرضك
غضبة للعرض... للأرض... لنا ... غضبة تبعث فينا مجدنا
وإذا ما هتف الهول بنا ... فليقل كل فتى. إنى هنا

وقد لعب هذا النشيد دوره الوطنى فى معاركنا، وحاجتنا إلى الأناشيد معروفة، وضعف ما كتب منها حتى الآن لا جدال فيه، فإلى جانب العاطفة الصادقة فى هذا النشيد، نرى الأسلوب المعاصر وزوايا الالتقاط التى تعنى بالحض والاثارة فى وقت كنا في حاجة إليهما حتى نطلق الصرخة التى (تشد ظهور الركع) كما يقول الشناوى، ومن هنا خطورة هذا النشيد وعلوه على الهتافات العنترية الساذجة مثل (نحن السيوف المشرعات للعدا) و(نحن بناة الهرم...) وما تابع هذه الشعارات التقريرية التى لا تمس عاطفة ولا تحرك نخوة، وإنما تبعث على الضحك بسذاجتها ومشيها على الدروب المطروقة.

وتبدهك أيضاً هذه الحلاوة الغنائية والبساطة التعبيرية الآسرة فى مثل قول الشناوى:

زعـــمـــوا حـــبى يا قلب خطايا
لـم يـطـهـــــرهـا من الإثـم بـكـايـا
والخطايا مـــا لهـــا من غـــافـــر
فـــــتـــــرفق وتمهل فى الخطايـا
حـــسـبنا مـــا كـــان واهدأ هاهنا
فى ضلوعى واحـــتـــبس خلف الحنايا

وتطرد خصائص الغنائية على أتم درجاتها فى شعر كامل الشناوى من بساطة وعفوية، إلى أناقة تعبيرية، إلى ترنيم شجى أليف لا تحذلق فيه ولا ادعاء، وحسب الشناوى أن يكون هذا الروح البلبلى الصادق.

على أننا لا نعدم اليوم نقاداً يقولون إن الغنائية مرحلة تخطاها الشعر عامة، وأن فيها من البساطة الساذجة ما لا يرضى نفوسنا، فنحن أحوج إلى الشعر الدسم ذى الأبعاد الفكرية، لا الشعر الغنائى الذى يخاطب سطوح وجداناتنا، ويدللون على هذه الحاجة قائلين إن الإنسان قد تعدى حياة الفطرة، فتعقدت حياته وأخذت أنماط فنونه تتعقد هى الأخرى بتعقد هذه الحياة، وإذا بهذه الفنون جميعاً - ومنها الشعر بالطبع - تصبح ذات أعماق لانعكاس الحصيلة الثقافية التى وصلت إليها الإنسانية فى هذا العصر على هذه الفنون مضموناً وشكلاً، وهو كلام فيه نصيب من الصحة ولكنه على صحته لا ينفى حاجتنا إلى الشعر الغنائى، فمازلنا الى اليوم مع إعجابنا ببعض الأعمال الشعرية التى تتمثل فيها آراء هؤلاء النقاد نحس أننا فى حاجة إلى شعر الفطرة الصادقة، إلى الشعر النابع من إحساس لم يرتد

أزياء مفتعلة ولم يتخذ الحذلقة الفكرية وحشد ثقافات منوعة شعارا له.

ما زالت الإنسانية وستظل ظامئة إلى التجربة الشعورية تتناولها البساطة التعبيرية، بل وأقول البساطة الأميل إلى سذاجة الفطرة.... وارجع إلى سر خلود الأدب القديم فى الملاحم والأساطير... واسأل نفسك ماذا يعجبك فيه؟

ولعل مما يؤيد رأينا رجوع كثير من الشعراء، على اختلاف أوطانهم ولغاتهم إلى أدبهم الشعبى، ابن الفطرة الصادقة والبساطة الأليفة، يستوحونه ويتخذون منه موضوعاتهم، بل ويستعيرون طرق تعبيره البعيدة عن التعقيد واستعراض العضلات الثقافية، وقبل أن نتناول مضمون (لا تكذبى) العام واتجاهاته، نريد أن نسأل لماذا نشرت قصائده بهذا الشكل؟

إن قصائد المجموعة قصائد عمودية تتبع القالب الكلاسيكى، ولكنها فى الديوان تتقطع جملا غير مرتبطة وكأنها محاولة جديدة من محاولات التعبير، فما المراد بنشرها بهذا الشكل.....؟

هل الغرض الإيهام بأنها من الشعر الجديد؟ إن كان هذا هو الغرض، فالمسألة لا تخفى على أى قارئ له بالشعر العربى أبسط دراية، وليس هناك إلا احتمال واحد هو أن مجموعة القصائد المنشورة ضئيلة وقليلة العدد إلى الحد الذى دعا إلى بعثرتها جملا مفرقة لتغطى مساحات ورقية يمكن أن تخرج كتابا.

فالأبيات الآتية لا يمكن أن تكتب إلا هكذا:

لا.. وعينيك يا حبيبة روحى — لم أعد فيك هائما فاستريحى
سكنت ثورتى فصار سواء — أن تلينى أو تجنحى للجموح
واهتدت حيرتى فسيان عندى — أن تبوحى بالحب او لا تبوحى

ولكنك تراها فى الديوان منثورة فى الشكل الآتى:

لا .. وعـينيك يا حـبـيـبـة روحى

لـم أعـــد فـــيك هـائـمـــا

فـــاســـتـــريحى

وهو ترتيب جديد للبيت العمودى بشكله التقليدى المعروف، ولكنه فى نفس الوقت ترتيب يثير البلبلة والاضطراب، وليست هناك حاجة فنية تدعو إلى ذلك، إلا إذا كان الغرض منه الوقوف فى كل سطر على معنى متكامل ولو حملت هذا المعنى لفظة واحدة، وفى هذه الحالة يكون أسلوب الشعر الجديد أليق وأنسب، لأنه سيمكن الشاعر من أداء ما يريده فى دقة مع انسجام الإيقاع.

فإذا انتهينا من جانب الشكل ودلفنا إلى المضمون العام لهذه المجموعة فستجد اتجاهات نحددها فيما يأتى:

شعر الحب - شعر الوطنية - شعر الشك والحيرة.

أما شعر الحب فهو اللون الغالب على المجموعة والذى يطبعها بطابعه، ولعل العنوان الذى اختير لها (وهو اسم أغنية شهيرة) يومىء إلى ذلك، بل هو فى حقيقة الأمر يومىء الى ظاهرة فريدة فى هذه المجموعة الشعرية تستوقف نظر الباحث، فإن المرأة التى يتعامل معها (كامل الشناوى) نمط خاص من النساء، فهى دائما امرأة خائنة، ومن هنا إشارتنا إلى معنى عنوان المجموعة (لا تكذبى) الذى يطالعك على الغلاف والذى يصافح عينيك فى نفس القصيدة التى استعيرت عنوانها اسما للمجموعة، وهى القصيدة الأولى التى وضعت - دون عمد - لتحدد لك اللون المطرد الذى ستراه فى أغلب شعر هذا الاتجاه:

لا تكذبى... إنى رأيتكما معا ودعى البكاء فقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور إذا جرى من عين كاذبة فأنكر وادعى

وهو يقول لحبيبته ايضاً:

ما زال يحمل قلبه المجنونا فاسقيه من غصص الخداع فنونا

صبى له الكأس التى ما ذاقها إلا وجن من العذاب جنونا

والقصيدة قبل هذا تحمل عنوانا دالا هو (ياحيتى).

ولسنا فى حاجة الى ذكر الشواهد من شعر المجموعة لندلل على هذه الظاهرة، لأنها مطردة اطراداً يلفت النظر كما قلنا، وقد استتبع ذلك أن القارئ لا يرى من وجود العلاقة بين الرجل والمرأة الا وجه الخيانة، فلن نرى صورة للقاء أو حرقة له أو لحظة توافق وعادة، المرأة الخائنة فى شعر الشناوى قوية مسيطرة والشاعر موكل بحبها وهو فى هذه الحالة التى تأخذ وضع القانون السائد، قد يصفح أو يثور أو يقطع علاقته بها.

فإذا ذكر اللقاء أو القرب على قلة ذكرهما، أخذ هذا اللون كما نرى فى قوله.

كنت ألقاك على البعد وألقى فيك أحلامى وروحى

صرت فى قربى ولا ألقاك لا ألقاك إلا فى جروحى

أو قوله:

يا حبيبى حسبى من الوصل أنى بالأمانى ألقاك حينا فحينا

وهو حب لا يستوفى عمره الطبيعى:

يا وردة لم يزل فى جونا أثر من نفحها آه لو عادت لياليك

ذكرت بعدك أيامى التى سلفت فاشتقتها غير يوم خاننى فيك

يوم افترقنا على أنى أراك غدا فلم أجد فى غدى إلا تنائيك

لولا إبائى، ولولا أننى رجل لحدثتك الليالى كيف أبكيك

ويبدو - إن صدق الاستنتاج - أن أغلب هؤلاء الحبيبات من طبقة الفنانات اللواتى يتاح للشاعر بطبيعة عمله فى الصحافة أن يلقاهن، وهى طبقة تسر بجميع المعجبين ويسعدها أن يكثر العدد ويتردد الطلب، ولا عليها إن تراجعت أو (خانت)، لأن العلاقة هنا علاقة تؤكد الغرور الأنثوى وترضيه أكثر منها علاقة يتلقفها القلب فتشبع حاجته الطبيعية، ولعلنا نستنتج أيضاً - من خلال الأبيات التالية (إن إحداهن مطربة):

أفديك شادية فصوتك فتنة قهارة كجمالك القهار

تترنح الألفاظ فى شفتيك سكرى منهما وتفوح كالأزهار

ولها بسمعى مثل أصداء المنى ولها بقلبى مثل لذع النار

ويؤكد استنتاجنا ان حبيبات الشناوى من الوسط الفنى قوله:

لا منى فى غرامك اللائمونا ليت قلبى يصغى لما يرجفونا

وقوله:

زعموا حبى يا قلب خطايا....

فإذا كان شعر الحب فى هذه المجموعة يدور فى هذا الفلك، فالشاعر يعتب ويثور ويهدد، وما أحلى عتابه لقلبه لأنه أحب خائنة غادرة:

أنت قلبى فلا تخف وأجب: هل تحبها

وإلى الآن لم يزل نابضاً فيك حبها

لست قلبى أنا إذن إنما أنت قلبها

وتثور كبرياؤه فيقول:

لست أشكو منك فالشكوى عذاب الأبرياء

وهى قـيـد ترسف العـزة فـيـه والإباء

أنـا لا أشكـو فـفـى الشكـوى انحـنـاء

وأنـا نبـض عـروقـى كـبـريـاء

أما شعـر الوطنية فيتمثل فى مجموعة من الأناشيد غناها كبار مطربينا، وأقواها (نشيد الحرية) وقد سبق أن تحدثنا عنه، والشناوى أبرع شاعر فى هذا الميدان، فلديه إمكانيات الشاعر الغنائى الممتاز، ومن هنا إقبال كبار الملحنين والمطربين على شعره.

أما شعره التأملى الذى أسميناه شعر الشك والحيرة، فهو محاولة للخروج من نمطية اللون الواحد، ولكن الى أى حد ينجح هذا الشعر فى هذا المجال؟

إن القصيدة التالية نموذج لهذا الاتجاه:

يـارب فـيـم خـلـقـتـنـا

وتركـتـنـا نـهـب الضـبـاب

فـلا ظـلام ولا سـنـا

ونـدب فـوق الأرض

لا نـدرى بـهـا

ونـدب فـوق الأرض

لا تـدرى بـنـا

أنـا مـن أنـا

أنـا مـن أكـون

وسـيـلـة أم غـايـة

أنـا لـسـت أعـرف مـن أنـا

فماذا أتى الشاعر به من جديد فى موقفه التأملى هذا؟ إنها أسئلة قلبتها البشرية منذ ألوف السنين، ولكنها لم تقتصر على إلقاء الأسئلة، فكان أن وضعت هذه الفلسفات المتعددة المتباينة أجوبة لها... أما موقف الشناوى فهو موقف تقريرى مباشر كما نرى فى قصيدته وكما نرى فى قصائد أخرى تأخذ نفس الاتجاه، وهو موقف ساذج لا عمق فيه ولا جدة.

إن الشك فى الشعر العربى كتجربة إنسانية مطردة فى شعر شاعر لا نجدها إلا عند أبى العلاء، ولعلنا فى عصرنا الحديث لا نرى صورة صادقة له إلا كما نراها فى (الطلاسم) لأبى ماضى.... وهى تدير نفس الأسئلة الخالدة.... القديمة الجديدة أبداً.... من نحن؟ ما سر هذا الكون؟ وما المصير؟ ولكن أى براعة فنية شكلت وضع هذه الأسئلة فابتعدت بها عن التقرير والمباشرة.

إن الغنائية فى هذا المجال تفسده وتجنى عليه، إنه فى حاجة إلى أبعاد أعمق وأفكار أدق، بل إنه يحتاج - فى رأيى - إلى أسلوب يغلب عليه الرمز، لأن ايراد هذه الأسئلة التى قلبتها البشرية منذ دبت على الأرض بهذه الصورة التقريرية تسطيح لموقف ضخم فى تاريخ الإنسانية وموقفها من الكون المحيط بها.

على أن موقف الشك - وإن لم يستطع الشناوى الارتفاع به إلى المستويات التى وصل إليها شعره - موقف أصيل لم يفتعل - فهو فى مقدمة مجموعته يقول: "لا تتهمنى بالتشاؤم لأن بعض ألفاظى حزينة، وبعض تعبيراتى مقطبة الجبين، فما دام الموت يتعقب حياتنا، وما دمنا لا نعرف من نحن؟ فإن المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة ويسمون ذلك تفاؤلا..... "

كامل الشناوى.... شاعر الغزل الهروبى

يرى بعض النقاد[1] أن مفهوما جديداً للغزل قد بدأ يظهر فى الشعر المصرى فى مطلع العشرينيات من القرن العشرين سرت فيه متاهات اليأس والتشاؤم وأمواج الشك الذهنى، والتساؤل الفلسفى، وأخذ شاعر الغزل بالتالى يبتعد عن منطقة التصوير الحسى قليلاً، ليغوص فى أعماق عاطفة الحب الغامضة محللا باحثا، وشاكا متسائلا مغرما بالمعانى الدقيقة الكامنة فى تجربة الحب سابحا فى تيار الخطرات بحثا عن لآلئ الأفكار، فأصبح شاعر الغزل الهروبى هارباً إلى حد ما من المجتمع والحياة، منسحبا من منطقة الضوء إلى منطقة الظل، يتمنى أن يكون له غار فى قمة جبل بعيد... بعيد وراء السحاب، فقد انهارت جسور اللقاء الروحى بينه وبين البشر، ولم يعد يرى فيهم إلا وحوش أحقاد، وغدر ونفاق.

وسلك أصحاب الاتجاه الهروبى عدة مسالك، فمنهم أصحاب الحب الهروبى الروحى مثل ناجى، والهمشرى وحسن كامل الصيرفى ومحمود حسن اسماعيل وأحمد رامى، ومنهم أصحاب الحب الهروبى الحسى ويمثلهم على محمود طه وصالح جودت وزكى مبارك ويضع الناقد د. سعد دعبيس الشاعر كامل الشناوى ضمن أصحاب الحب الهروبى الحسى باعتباره شاعراً عاطفياً رومانسياً يتسم شعره بالقلق والحزن والشعور الحاد بالغربة والخيال المجنح ليعوضه عما فقده فى دنيا الواقع، فيجسد الأحلام كأنها حقيقة، فيرسم صورة مجسدة لمحبوبة وهمية يعشقها فى الخيال، وهو خيال أقرب إلى الجنون، ولذلك كان كامل الشناوى يلجأ كثيراً إلى الهروب من الواقع، فيطير على أجنحة الخيال الرومانسى

(١) د. سعد دعبيس، الغزل فى الشعر العربى، ص ٤٨٠.

الحالم إلى عوالم جميلة ساحرة فإذا صدمه الواقع الأليم، وإذا فجع فى وفاء الحبيبة التى تخيل أنها تبادله مشاعره انشطر قلبه، وسالت دموعه أنهاراً وتحطم وجدانه، فصار شظايا، ومن هنا كانت مأساة شاعر الشك والحرمان فى حكايات حبه العديدة المخفقة!

ويرى د. سعد دعبيس أن أهم العوامل المؤثرة فى غزل كامل الشناوى هى[1]:

(أ) نفسيته القلقة الساخرة:

ويبدو أن الحيرة قد اعتصرت ليالى هذا الشاعر، وعصفت بأمنه واستقراره فلم يعرف أضواء حياته إلا فى ضباب الليل الكثيف، ولم يبصر طريقه إلى الصباح إلا على أشلاء قدمين معذبتين، أضناهما السرى فى دروب الليل ومتاهاته.

نعم... لم يكن يستطيع النوم قبل السادسة صباحاً "ولهذا لم يكن يسمح لمرافقه وصديقه (جليل البندارى) بالعودة إلى بيته قبل أن يتمشى معه فى شارع الهرم، حتى تظهر خيوط الفجر"[2].

وقد امتزج فى نفسه المعذبة هذان العاملان النفسيان قلقة، وسخريته، فكانت سخريته الضاحكة الباكية، فعلى الرغم من أن أسلوبه فى الحياة كان أسلوب النكتة الحلوة أو المرة، ذلك الأسلوب الساخر الضاحك (فقد كان كامل الشناوى شاعر الدموع، كان يبدو فى خلواته وكأنه دمعه كبيرة قد تحولت إلى إنسان، فهذا الإنسان كان يعذبه نبوغه، يعذبه شعره يعذبه حبه)[3].

---

(١) د. سعد دعبيس، الغزل فى الشعر العربى؛ ص ٦١٩.

(٢) انظر مقالا لجليل البندارى بعنوان «ملهمات فى ساعة الخصام» بجريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٦٨/٨/٢٤.

(٣) جريدة الجمهورية، من مقال بعنوان (كامل الشناوى) ـ لحافظ محمود، بتاريخ ١٩٦٨/١٠/٧.

(ب) تجارب حبه العديدة:

ونتيجة لهذه الحياة القلقة الحائرة يعيش الشاعر فى لياليه العاصفة تجارب حب عديدة، يجاهر فى بعضها بالإثم، ويصرخ فى بعضها باكيا، ومن هنا لم يتح له الاستقرار فى بيت الزوجية، فظل عزيا طول حياته محروما من قلب حنون يقف إلى جواره، إذ كان نهاره وجزء من ليله وقفا على عمله الصحفى، وبقية ليله لمغامراته العاطفية،يقول جليل البندارى فى معرض الموازنة بين حياة (رامى) وحياة (كامل الشناوى).

"إن تمثال العذاب الذى أقامه أحمد رامى، وظل يتعبد فيه طول عمره لا يقاس بقوة التصور التى كان يعيش بها كامل الشناوى فى غرامياته،فلم يكن رامى شاعرا محروما، وإن بدا فى شعره عاشقا ولهاناً معذباً، فرامى تزوج وأنجب الأولاد والبنات، وأصبح ربا لأسرة سعيدة.أما كامل الشناوى فعاش طول حياته وحيدا محروما معذباً."

وحياة الليل هى التى أوقعته فى غرام بعض الراقصات والمطربات وقد كان الليل والقلق صديقين مخلصين لقلبه وشاعريته وكانا أيضاً أرض المأساة التى غرست فى قلبه أشواك الغدر والخيانة....! والليل فى معجمه الغزلى جزء من تكوينه وشخصيته الهروبية القلقة.

فما أكثر ما يناجيه بمثل قوله:

ياوردة لم يزل فى جـــــونا أثر

... من نفـــــحـــــهـــــا

...آه لو عـــــادت ليـــــاليك

لـولا إبـائـى، ولـولا أنـنـى رجـل

لحـدثتك الليـالى: كـيف أبكيك

وقوله:

أنـا أهـوى الجـمـال

فـى ظـلـمـة الـلـيـل

يثـيـر الحنين والشـجـو فـينا

أوقـظ الـفـجـر بـالشـكـاة

وأرعـى أنجـم الـلـيـل

حـيـرة وظـنـونـا

وقوله:

تمـرد الـلـيـل

لاأغـفـو بـه أبـدا

حتى أرى الفجر مسفوحاً على بابى !

وفى أضواء الليل الدامية عاش بداية شبابه لاهياً بالحب، متهتكا، مجاهراً بالإثم كأبى نواس[1] حيث كان شعاره:

دارى غـرامى - مـا بدا لك - دارى

أنا بالصـبـابة هاتك أسـتـارى !

هـيـهـات... لا أقـوى

عـلـى كـتـمـان

(١) «غرام الأدباء» ص ١٢٦ ـ عباس خضر.

مـــا باحت بـه عـــيناك من أســـرار

عـــــــيناك حـــــــدثتـــــــا

بمـــا ســـكـــرت بـــه روحـــى

وعـــربد خـــمـــره بوقـــارى

وفى أضواء الليل الحمراء يلتقى - كما يقول عباس خضر - براقصة لبنانية تأخذ بمجامع قلبه ويرى فيها نموذجاً للجمال غير تلك النماذج التى ألفها فى جولاته الليلية، أما هى فلا ترى فيه غير شخصية مشهورة ترضى غرورها، لقد كانت جسرا يعبره طلاب اللذه المؤقتة، ومحطة لهو لكل ثرى مترف، ولكنه ظل معها عامين غارقاً فى بحار اللذة الصاخبة تلك هى "روز" أو "وردة"[1] التى يخاطبها متوسلا:

يـا وردة لـم يـزل فـى جـــــونـا أثـر

مـن نـفـــــحـــــهـــــا

آه لـو عـــــادت لـيـــــالـيـك

وذات يوم تستفيق كبرياؤه، ويدور صراع عنيف بينه وبين قلبه، بين مركزه الاجتماعى ونزواته الصاخبة، ويراها تجلس مع الأثرياء، وتوهم كلا منهم أنه فارسها المفضل، ويقرر قطع هذه العلاقة، ولكنه إذ يقرر ذلك إنما يمزق روحه، ويدمر كيانه، وحين يستأنف جولاته الليلية بعد فراقها يحس بجرحها ينزف دما شعريا هاربا من الحياة، هاربا من الحب،هاربا من وجوده ومن يوم ميلاده[2].

ويأتى بعد هذا الغرام العنيف غرام عنيف آخر بإحدى المطربات

(١) انظر غرام الأدباء من ص١٢٧ إلى ١٣١.

(٢) انظر: غرام الأدباء ص ١٣٣ ـ ١٣٨.

المشهورات ألا وهى "نجاة" التى لم يطق كامل الشناوى أن يرتبط اسمها باسم أى رجل آخر، فقد كان يحبها كما يحب الشعراء الأوهام والليل والنجوم البعيدة فى السماء، وكانت هى تنظر إليه كأعز صديق ظهر فى حياتها، وكانت غيرته عليها من منافسه فى حبها، وهو عز الدين ذو الفقار هى التى ألهمته قصيدة (حبيبها)[1] التى يقول فيها:

حبيبها، لست وحدك

حبيبها... أنا قبلك!

وربما جئت بعدك

وربما كنت مثلك

والآن... لنتأمل أثر الليل والحب فى شعر كامل الشناوى: لنتأمل نظرته للمرأة والحب.

مفهوم الحب عنده:

عاشق الليل والخطايا أو تكرار لمفهوم التعدد الساخر.

إن أول خيط من خيوط مأساة حبه، يتراءى فى ظاهرة الخيانة، فالخيانة أول ما يطالعنا فى ديوانه "لا تكذبى".

لا تكذبى....

إنى رأيتكما معاً

ودعى البكاء

فقد كرهت الأدمعا

(١) أنظر مقالا لجليل البندارى بعنوان نجاة وكامل الشناوى بين الوهم والحقيقة جريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٦٨/٨/١٧.

مـا أهون الدمع الجـسـور إذا جـرى

مـن عـــــيـن كـــــاذبـة

فـــــــأنـكـر وادعـى

ومن هذه القصيدة يمكن أن نفهم سر فشل حبه،فقد كان يعيش تجارب حب مادية صاخبة، متعددة، لا تكتفى بالهمسات العاطفية،والمناجاة الروحية فمثل الراقصة روز وغيرها ممن عشن معه تجارب حبه الحسى من صنف لا يهمه من الحب إلا العامل التجارى- كما سبق أن أوضحت - ولذلك فهو حين يرسم صورة لخيانة محبوباته له،يصور خيانة جنسية لا عاطفية:

إنـى رأيـتـكـمـــــــا

إنى ســـمـــعـــتكـمـــا

عـــيـنـاك فى عـــيـنيـــه

فى شـــفـــتـــيـــه

فـى كـــــفـــيـــه

فـى قـــدمـــيـــه

ويداك ضـــارعـــتـــان

ترتعـــشـــان من لهف عليـــه

تتـحـديان الشـوق بالقـبـلات

تلذعنى بســـوط من لهـــيب

وتتكرر تجارب الخيانة بعد ذلك فى قصائد كثيرة،منها (حبيبها)

حـــبـــيـــبـــهـــا ،وروت لى

مـــــــاكـــــــان منـك ومنـهـم

فـــهـم كـــشـــيـــر.... ولكن

لا شـئ نـعـــــــــــرف عـنـهـم

وكذلك تطل الخيانة فى قصيدة (ظمأ وجوع) وقصائد أخرى،ولهذا فهو يرى حبيبته أحيانا فى خداعها الناعم حية رقطاء،ومع ذلك فحنينه إلى سمها القاتل دينه وعبادته،ولذا فحياته صراع دائم عنيف بين العقل والعاطفة، وبين كبريائه المتمردة، وجسمه الذى تعثر فى الوحل.

كـــــــهـــــــارب لـيـس يـدرى

مـن أيـن،أو أيـن يـمـــــــــضـى؟

شـك ! ضـــــبـــــــاب ! حـطـام

بعـــضى يمـــزق بعـــضى.... !

ســـألت عـــقلى فـــأصـــغى

وقـــــــــــال .لا .لـن تـراهـا

وقـــــــــــال قـلـبـى. أراهـا

ولـن أحـب ســـــــــــواهـا

إنه يحس بتمزق نفسى حين يجلس مع حبيبته الراقصة فى "الكباريه" محاصرا بعشرات من عشاقها والمعجبين بها، فهو لا يحس فى القرب منها إلا جراحاً:

كنـت ألقـــاك على البـــعـــد

فـــألقى فـــيـك أحـــلامى وروحى

صـــرت فى قـــربى ولا ألقـــاك

لا ألـقـــــاك إلا فـى جـــــروحى

ويتفجر ذلك الصراع حمما بركانية ثائرة، وصرخات عاطفية ملتاعة فى قصيدة (الخطايا) وفيها ثورة الرومانسيين الحزينة:

آه مـــــن نـــــومـــــى

ومـن صـــــحـــــوى

ومن ســاعــة تعلن أو تخـفى أســايا

آه مـــنـــهـــــــــا

أنـا لـم أدرك مـــــــداهـا

آه مـــــــنـــــــى

هـى لـم تـدرك مـــــــدايـا

حطمـتنى مـثلمـا حطمـتـهـا

فـــهى منى وأنا منهـــا..... شظايا

إنه يحس بأن حبه الآثم للراقصة «روز» - فى نظر الناس - خطايا، وربما تضخم فى قلبه إحساسه بأقاويل الناس، وتساؤلاتهم وشكوكهم حين يرون صحفياً كبيراً، وشاعرا مشهوراً ينزلق بقمة مجده إلى منحدرات هذه الراقصة:

أو تـدرى بمـا جـــــــــرى

أو تـدرى؟ دمـى جـــــــــرى

جـــــــــذبـتـنـى مـن الـذرى

ورمـت بـى الـى الـثـــــــــرى

وكانت النتيجة لمثل هذا الحب القائم على الرغبات الحسية المحمومة والمحاصر بأقاويل الناس، أن يتحطم:

دمـــــــــــرتـنـى.... لأنـنـى

كـنـت يـومـــا أحـــبـــهـــا

ولكن شظايا الحب المتطايرة تمزق نفسه، وتنفذ إلى قلبه سهام حيرة وقلق، ويحاول بعد ذلك أن يتسلى بحب حسناء"الكافيتريا" وغيرها... وغيرها ولكن جرح «روز» كان غائراً فى أعماقه، فإذا تعلق بحسناء "الكافيتريا" فإنما يريد تزويد عاطفته بطاقة حرارية تعينه على نظم قصيدة جديدة:

أريد إلهـــامـــة جـــديدة بقـدر مـا أنظم القـصـيـدة

إنه فى النهاية ثائر على الوجود،هائم بالعدم، رافض ليوم مولده

لـــيـــت أنـــى مـــن الأزل

لـم أعـش هـذه الحـــيـــاة

عـــشـت فـــيـــهـــا ولـم أزل

جـــاهـلا أنهـــا حـــيـــاة

لـــيـــت أنـــى مـــن الأزل

كـنـت روحـــــــــــا

ولـــــــــــم أزل

صياغته:

لعل الطابع العام الذى يميز صياغته هو الطابع العاطفى المشتعل الذى يسيطر على ألفاظه وصوره، وتتضح هذه العاطفة العنيفة فى: